نصوص مختارة

من مقالات الدكتور محمد بديع الكسم

إن فلسفة الفيلسوف، والمعاني المقصودة منها، واللغة التي يستعين بها، كل ذلك عمل شخصي يتشكل من جهد عقلي صرف ومن إيمان لا عقلي قد يكون شعورياً أو غير شعوري، وبقائمة من الأحكام العاطفية لها طابع البداهة البحتة. ويمكن أن نوجز ذلك كله بقولنا إن العقل عند الفلاسفة تأمل متصل واعتماد على سلم من القيم، شعورية كانت أو غير شعورية، وتحقيق لما طالب به شيخ الفلاسفة أفلاطون، عندما ألح على الفيلسوف ألا يكتفي بالعقل البارد وحده، وأن يتفلسف بكل ما يملك من قوى وملكات..

ثمة مسألة تتعلق بالحوار الفلسفي. فالحوار أسلوب في التعبير نجده عند أفلاطون وبركلي وعند آخرين. ولكن هناك أيضاً حوار سقراط مع المارة في الشارع وحوار القارئ مع النص وحوار النفس مع ذاتها. وإذا كان الحوار من جهة أولى، أسلوباً مرناً يطمح إلى استيعاب الأفكار المتباينة ويهدف إلى بلوغ الحقيقة الثابتة، فإننا نستطيع من جهة ثانية، أن نفرق بين نوعين من الحوار.

الأول هو حوار الجيل الفلسفي الصاعد الذي يعيش مرحلة البحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن الحقائق، ومرحلة البحث تسبق دائماً مرحلة الوصول والاستقرار. لهذا كان الحوار عند هؤلاء الباحثين امتحاناً للأفكار وتقريباً من الحقيقة الصادقة ومثمراً في جميع الأوقات.

أما النوع الثاني من الحوار فهو الذي نسمعه في المؤتمرات الفلسفية أو الذي نقرأه في الرسائل المتبادلة بين فلاسفة شيوخ. فهؤلاء في أغلب الأحيان قد وصلوا بعد عناء، ثم استقر كل واحد منهم ضمن دائرة مكتملة يكرر ما اقتنع به وارتضاه.

(من مقال: لغة الفلسفة)

نريد في حديثنا عن الحقيقة الفلسفية أن نقصر الكلام على الخصائص العامة للحقيقة المتضمنة في الحكم الفلسفي، لنخلص إلى ما يميزها من الحقائق الأخرى. نذكر أولاً بأن الحقيقة صفة من صفات الأحكام وحدها. فالحكم أو التصديق يقرر علاقة بين موضوع ومحمول، ويوصف بأنه حق إذا تطابق مضمونه مع الواقع. الحقيقة إذن هي تطابق مافي الأذهان مع مافي الأعيان. والتعبير اللفظي عن الحكم هو القضية. فقولي: «الكون متناه في الزمان والمكان» قضية تعبر عن حكم يسند التناهي إلى الكون، وهي تتصف بالحقيقة أو الصدق إذا كان الكون فعلاً متناهياً في الزمان والمكان. وإذا كانت الحقيقة صفة من صفات الحكم، وكان الحكم بدوره فعلاً من أفعال العقل، فلا معنى للتحدث عن الحقيقة إلا حين يقوم عقلٌ معين بإطلاق حكم معين. والنتيجة أن الحقيقة هي أولاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبالذات حقيقة بالنسبة إلى صاحبها، لأنها متضمنةٌ في الحكم الذي يطلقه، وملازمة للقضية التي يقررها. والواقع ألا فرق بين تقرير القضية وبين تقريرها على أنها صادقة أو متصفة بالحقيقة.

نستطيع إذن أن نؤكد، في خطوة أولى، أن كل قضية، مهما يكن مضمونها، قضيةٌ صادقةٌ بالنسبة إلى صاحبها الذي يقررها، وأنها ليست صادقة إلا بالنسبة إليه. ولا نريد أن ننتقل من هذا اليقين الأول قبل أن نرفع عنه كل لَبس ونستخلص نتائجه في التطبيق.

قلنا إن القضية صادقةٌ بالنسبة إلى صاحبها، لأن الإنسان لا يملك أن يطلق حكماً لا يؤمن بصدقه. فمن الواضح أن الاعتقاد ملازم للحكم، مقومٌ لوجوده كحكم أو تصديق، بحيث يكفي أن ينسحب منه حتى يتفتت الحكم أو يعلق ألفاظاً في الفراغ. وينطبق قولنا ذلك على جميع ميادين المعرفة وصورها. فالمعرفة العامية معرفة صادقة تعبر عن الواقع عند صاحبها، وهي صادقة صدقاً مطلقاً حتى يتكشف له خطؤها أو حتى يتجاوزها إلى معرفة أدق وأشمل. وكذلك المعرفة العلمية والدينية والفلسفية. ويكفي أن يتأمل كل منا في البنية المنطقية للقضية التي تعبر عن معتقد من معتقداته الدينية أو الفلسفية حتى يجد أنها لا تختلف مطلقاً، من حيث كونها متصفة بالصدق، عن القضية العلمية الخالصة.

قد يعترض هنا بأن الحقيقة الفلسفية لا تمتلك، حتى بالنسبة إلى صاحبها، هذا اليقين الجازم الذي تملكه الحقيقة الرياضية أو الطبيعية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجوابنا أن تاريخ الفلسفة يشهد أن الفيلسوف، حين يقرر أحكامه تقريراً مليئاً خالياً من كل تحفظ، فهو يقررها على أنها حقائق لا يقل يقينها عن يقين أية حقيقة علمية. فديكارت يصرح لنا بأن وجود الله أوثق عنده من حقائق الرياضة. أما إذا كان الفيلسوف يتردد أحياناً في بعض أحكامه ويقررها على أنها مرجحة فحسب، فيجب أن نعد جملة التحفظات التي تمنعه من توكيد أحكامه توكيداً مطلقاً، جزءاً من مضمون حكمه الحقيقي، أي يجب بعبارة أخرى، أن ندخل جهة الحكم في مادته بحيث يظل الحكم نقياً صافياً، يعبر عن الحقيقة تعبيراً كاملاً. فإذا قيل إن أفلاطون – أو غيره من الفلاسفة – لم يكن واثقاً كل الوثوق من خلود النفس، وإنه لم يقرر هذا الخلود إلا بوصفه مرجحاً، قلنا إن القضية معبرة عن موقف أفلاطون تعبيراً كاملاً تنطوي هي نفسها على هذا الترجيح وتصاغ بالعبارة القائلة إن خلود النفس أمر مرجح. ولكن هذه القضية لابد أن تتصف بأنها، بالنسبة إلى صاحبها، صادقة صدقاً يقينياً. طبيعي أن الخلود، في ذاته، لا يمكن أن يكون مرجحاً، فهو إما أن يكون أو لا يكون. وإنما يُحمل الترجيح على حكم يتصل بدوره بمسألة الخلود. إنه إذن جزء من مضمون حكم على حكم ينتقل بنا من سطح مشكلات الوجود إلى سطح مشكلات المعرفة. ولا يتسع الوقت هنا لتفصيل العلاقة بين هذين النوعين من المشكلات، لهذا أعتذر عن عدم الكلام فيها.

(من مقال الحقيقة الفلسفية)

يقول مفكر فيلسوف: «إن معاجم اللغات جميعاً لم تعرف عبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تاريخها الطويل، لفظة أجمل من لفظة الحرية، باستثناء لفظة الحب».

وواضح أن الجمال هاهنا ليس جمال الصورة البصرية ولا جمال الصورة السمعية، وإنما المقصود أن لفظة الحرية أحلى في المذاق وأطيب طعماً من كل لفظة، أو أنها بتعبير آخر أكثر قدرة من غيرها على تجميع قوى النفس، وعلى تفتيح طاقاتها، وعلى تعريض الأفق أمامها آفاقاً بعد آفاق.

قد يقال إن الحرية حريات، لأن حرية التصميم في قرارة الأنا غير حرية التنفيذ في ساحة الواقع، ولأن التفكير الصامت غير حرية التفكير بصوت مرتفع، ولأن حرية الفرد الواحد غير حرية الإنسان أينما كان. والجواب البسيط أن الحرية واحدة. إنها ماهية ذات مظاهر، أو وجود ذو أبعاد. باطنها قدرة على تعيين الذات بالذات، وانتفاء القسر في كل صوره، وظاهرها نسق من الحريات، أو إذا شئتم من الحقوق الأساسية التي تتكون من خلال النشاط المشترك للعقل والعمل والمحبة والتطلع. فالإنسان كما قال ابن الخطاب حر منذ أن تلده أمه، ولكنه ليس حرية كله. إنه أيضاً نزوع إلى وعي الواقع وامتلاكه، وانفتاح متصل على الناس، وتجاوز صاعد لا يقطعه إلا الموت. ولكن الإنسان لا يتحقق على كل صعيد إلا حين تحركه حريته الباطنة وترافق كل خطواته. إن الحرية أساس.

يخيل إليّ أن اعتراضاً مكبوتاً يهم أن ينصب على هذا الأساس نفسه. فهو لا يرى في الحرية حرية اختيار، سوى لفظة من الألفاظ لا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تنطوي إلا على وهم من الأوهام. وهو يرى أن الإنسان ظاهرة طبيعية، تخضع لمنطق الظواهر، وتحكمها الضرورة الفولاذية. وهو يرى إذن أن تقرير مثل هذه الحرية دون برهان يؤيده، تعسف باطل ومنطلق يفتقر هو نفسه إلى الأساس.

والجواب على هذا الاعتراض هو أولاً أن الحرية هي أساس البرهان نفسه وأنها كالشمس لا تحتاج أبداً لكي نراها إلى أن نضيء الشموع. وهو ثانياً أن النفس تمتلئ بالمرارة والأسى حين توضع الحرية موضع الشك لحظة واحدة.

(من مقال: الحرية أساساً)

الإنسان حيوان عاقل. ولكن الناس ليسوا جميعاً عاقلين. ذلك أن منهم الأحمق والمتهور والأرعن. بل إن الفرد الواحد بعينه ليس عاقلاً في كل وقت. فالتعريف إذن ليس وصفاً لواقع وإنما هو تعيين لما يجب أن يكون ولما يمكن أن يكون. إنه تعريف حركي لا سكوني، يحرص عليه الفلاسفة ولا يعترف به العلماء. فالفيلسوف يصر على أن الإنسان حيوان عاقل وإن كان يعرف أن بعض الناس يسخرون من الفلاسفة، ويضعونهم وراء القضبان، ويقتلونهم بالسم أو يحرقونهم بالنار. إنه إذن تعريف الإنسان لنفسه، أي تعبير عن صبوته وتطلعاته. فالإنسان إذن موجود متناقض لأنه لا يتطابق مع ذاته، وجوده مستقل عن ماهيته أو سابق عليها. فهو ما ليس هو كما أنه ليس أبداً ما هو، كما يقول هيجل وسارتر. إنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالفعل ما ليس بالقوة، أو بالقوة ما ليس بالفعل. الإنسان إذن موجود يتجاوز نفسه باستمرار، ليلحق بحقيقته ويبدع حياته. إنه نفي للحاضر وتعلق بالمستقبل. وهذا يعني أنه لا يرضى عن واقعه. وعدم الرضا دافع إلى الرفض والتمرد. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستخدم اللغة ليقول بها كلا. والتمرد تعبير عن إرادة التغيير. ولا تغيير بلا عمل. الإنسان إذن نزوع إلى العمل. إنه حيوان صانع، فهو يستخدم عقله ليطوع المادة وليجعل منها أدوات بين يديه. والأداة وسيلة لتفجير قوى الطبيعة والسيطرة على قوانينها. وهذا يعني أنه يقف في وجهها وينفصل عن جبريتها. إنه حر. ولكن الحرية الحقة لا تكتمل إلا إذا مارسها الإنسان في حياته مع الآخر. فالآخر عون للفرد على تحقيق ذاته. المجتمع إذن شرط لنماء الإنسان. ولكن المجتمع في الوقت ذاته حلبة تنافس وصراع. لابد إذن من تعيين للحقوق والواجبات. عند ذلك تندمج الأنا في النحن عن طريق صراعها مع الهو وعن طريق تعاطفها مع الأنت. وهذا يعني أن الإنسان حيوان سياسي. ولكن السياسة وسيلة للطمأنينة وأداة للارتقاء بالحياة، أما الرقي فترسيخ للقيم الكبرى. والقيم تفقد معناها إن لم تتجاوز الإنسان وتشده إلى ما هو خالد. ولكن الإنسان ليس خالداً، فكل منا سيموت حتماً. إنه وجود لفناء. وهو يعرف ذلك ويحياه. إنه إحساس بالموت أو وعي للموت. الإنسان إذن شقي تعيس. إنه شقي مرتين. فهو شقي لأنه لا يتطابق مع ذاته. وهو شقي في سعيه المستمر وراء ذاته لأنه واثق من أنه قبل أن يبلغها سوف تزل به قدمه ويهوي في العدم. ولكن العدم نفي للوجود ولا يفهم إلا به. الوجود هو الأصل، وهو الحقيقة. فالإنسان حنين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الوجود. إنه حيوان فيلسوف.

أريد أن أقطع هنا هذه الحركة التي بدأت تسرع والتي أخشى أن يرتفع ضجيجها. فكل ما أردته هو أن أعرض مشهداً قصيراً يصور مظاهر الإنسان بحيث يمكن أن يتجلى على صورة حيوان متمرد وحيوان صانع وحيوان سياسي وحيوان فيلسوف. ولا شك أنه يمكن أن ينجلي أيضاً على صورة الحيوان العالم والعابد والثائر والعاشق والفنان.

(من مقال: الإنسان حيوان عاقل)

إن وحدة الفكر العربي هي انسجام وتآلف وتجاوب بين المعاني والقيم الكبرى التي يعيشها أفراد الشعب العربي والتي تظهر واضحة في نمط حياتهم وفي مواقفهم الحاسمة تجاه الأحداث. ولسنا بحاجة إلى التدليل على أن هذه الوحدة متحققة في الوطن العربي تحققاً لا يقل في عمقه واتساعه عن تحقيق وحدة الفكر الغربي في الأمم الغربية. فاللغة العربية التي يتكلمها العرب في جميع أقطارهم ليست مجرد وسيلة للتفاهم وإنما تحمل في وحدتها وحدة الثقافة التي تنطوي عليها. فالمعاني الرئيسية في حياتنا الروحية والأخلاقية كالفرد والجماعة والحرية والعدالة والتضحية والكرامة والشرف وغير ذلك تتحدد في أذهاننا من خلال استخدام أجدادنا لها في إنتاجهم وحياتهم. ذلك أن اتصال العرب بينبوع ثقافي رئيسي واحد لابد أن يؤدي إلى ترسب المعاني والقيم على نمط متشابه في نفوسهم أجمعين.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونحن واثقون أن الحياة الروحية قد بلغت اليوم في نفوس الملايين من الشعب العربي حداً من القوة والنضج والوحدة لم تبلغه إطلاقاً في شعوب الدول الغربية. ومرجع ذلك أن المحن المتكررة التي ابتلي فيها الشعب العربي في تاريخه العربي الحديث قد هزت وجدانه القومي هزاً عنيفاً ودفعته بعزم وإصرار إلى أن يعيد النظر أي إلى أن يفكر تفكيراً إيجابياً مثمراً في جملة أوضاعه القائمة، وأن يجابه مشكلاته الحقيقية مجابهة واعية بناءة. ثم إن الكفاح المرير الذي فرضه عليه المستعمر وعميل المستعمر قد حمل مجموع الشعب آلاماً كبيرة، آلاماً مطهرة تصهر النفس وتسمو بها إلى معاناة القيم في نقائها الأصيل.

كل ذلك من شأنه أن يوجه وعي الجماهير العربية نحو مبادئ واحدة في الإصلاح الداخلي، ونحو مبادئ واحدة في فهم العلاقات بين الناس. وهنا يتضح لنا الفارق الجوهري بين تفكير المواطن العربي وبين تفكير المواطن الغربي من قضايا الحياة الإنسانية. فبينما يتلكأ الفرنسي أو الإنجليزي في تبرير سياسة دولة بالرجوع إلى مبادئ ملتوية متناقضة، يتخذ العربي موقفاً صريحاً صافياً يتفق مع ما تتسم به أهدافه الكبرى من صراحة وصفاء. إنه استطاع أن يحيل تجربة الألم التي فرضت عليه إلى تجربة تحرر وارتقاء، وأن يجعل من معركة القومية العربية عاملاً أساسياً في وحدة الفكر ووحدة الأهداف.

وإذا أردنا أن نخطو خطوة أخرى في الكشف عن وحدة الفكر العربي التي تقوم الفلسفة الاجتماعية بدورها الكبير في تركيزها استطعنا أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نجد في دعوة القومية العربية نفسها مظهراً من مظاهر الفكر الفلسفي في نشاطه الاجتماعي والسياسي. ذلك أن القومية العربية ليست مجرد واقع تاريخي واجتماعي، ولكنها فوق ذلك عقيدة. والحق أن فلسفة القومية العربية تعني أول ما تعني أن القومية العربية نفسها فلسفة أي نظرة شاملة متفتحة ذات قيمة حضارية، وموقف واع مسؤول يحمل رسالة إنسانية.

إنها فلسفة إنشائية تقوم على فهم للإنسان في طبيعته ومثله، وتهدف إلى حل أخلاقي مباشر للمشكلات العربية، وإلى إعطاء العالم نموذجاً خيراً لمضمون الحياة القومية من شأنه إذا ساد وانتصر أن يعيد إلى العالم توازنه المفقود.

(من مقال: دور الفلسفة في توحيد الفكر العربي)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net